تمهيـــد :

حين عرج النبى صلى الله عليه وسلم الى السماء السادسة ، التقى فيما يقال بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار ، لا الثلج يطفىء النار ، ولا النار تذيب الثلج ، وكان يدعو الله الذى ألف بين الثلج والنار ، أن يؤلف بين قلوب عباده المسلمين •

قد يحق لنا أن نتخذ من هذا المثال رمزا للوسطية العربية ، التى تقوم على « تجاور الأشياء وتمايزها » ، وأيضا « تعايشـــها » تحت عناية الله •

على أن نضيف الى تلك العبارة المعـــدلة عنصرا هاما ، وهو عنصر الحركة الذى اكتشفه القرآن الكريم فى ظواهر الطبيعة ، ثم نقله الى قلب المسلم ، وجعله يختلف عن اربة فارغة ، أو قطعة من خشب مسندة ، واعترف بواقعية الصراع بين الخير والشر ، وصعوبة الاهتـــداء الى الصراط المستقيم ، أى الى الشعرة الرفيعة ، التى تقع فى قلب الصراع المتناقض والمركب •

* * *

تلك بايجاز الملامح الرئيسية للوسطية ، التى التقينا بها خـــلال الكتاب الأول وهى تتخلق شيئا فشيئا ، والتى سنلتقى بهـــا فى هـــذا الكتاب ، وهى تلقى بظلالها على مواقف الانسان العقائدية والسلوكية والشعورية وما الى ذلك •

فالاســـلام هو دين الوســـط ، بمعنى أنه يجمـــع بين المقـــامين (اليهودية والمسيحية مثلا) فى أنظومة جديدة تتميز بالحركة ، وقـــد بدت وسطيته فى كل المواقف المطروحة سواء أكانت تختص بالعبادات

أم بالعقائد أم بأصول التشريع • وسواء أكانت فى أمور الدنيا أم فى أمـــور الدين •

* * *

أما الأخلاق الاسلامية فقد قامت على صفة « العدالة » ، وهى تعنى الموازنة والتحرى بين الجانبين ، وفى ظـل تلك الصـــفة استطاع الاسلام أن يقدم منهجا شاملا ، يسمح بقيام أخلاق انسانية ، تقوم على مفهوم الانسان فى الحضارة الاسلامية ، وهو مفهوم وســط بين الملاك والشيطان ، وقـــد ضربنا أمثلة على تلك الأخلاق الوســطية فى الالتزام ، وفى الجزاء ، وفى النية ، وفى الغرائز • وهى أخلاق حققت ما يمكن أن نسميه بالمدينة الفاضلة ، وبصورة واقعية فى عصر الرسول وخلفائه ، لا بالمعنى الفلسفى للمدن الفاضلة والذى يقوم على العلم والمعرفة والتنسيق والتقعيد بعيدا عن الخشية الداخلية ، بل بالمعنى الدينى الذى يحرك القلب ويثير العاطفـــة ويوقظ الضمير • ويثمر فى النهاية ما يسميه القرآن بالأنفس المطمئنة ، وهى أنفس تتميز بحالة وسطى بين السكون والانزعاج ، فى مقام جديد يتميز بالحركة ، ويمكن أن نطلق عليه مقام السكينة •

* * *

وفى ميدان الشعور الجمالى نلتقى بموقفين متطرفين ، موقف يركز على اللذة العقلية ، وآخر يركن الى اللذة الداخلية ، وكلا الموقفين ينتهيان بالمرء الى حالة من الثبات والسرمدية ، واجترار المفاهيم الكلية أو العواطف الذاتية •

أما الموقف الوسطى فنلتقى به عنـــد الغزالى ، وهو يحوم حول العملية الشعورية فيما يسميه علم المكاشفة ، ويحاول أن يقترب من طبيعة

الشوق والوجد ، ويستثير مسائل انسانية تدور حول الحرية والتجديد والحظوظ الدنيوية •

ومع ذلك لا نلتقى بمسائل جمالية تضمها نظرة شاملة • تفلسف الفن وعلاقته بالانسان والكون والعلوم الأخرى ، أى أننا لا نلتقى بفلسفة الوسطية للجمال ، ان الاهتمام قد انصب على مبحثى الحق والخير دون مبحث الجمال ، وهو التحدى الذى يواجه المفكر المعاصر ، على اعتبار أن هذا المبحث حديث النشأة ، وقد طرحت فى هذا الكتاب بعض التصورات لتأسيس علم جمال عربى ، منتزعة من الملامح الرئيسية للوسطية كما حددها الكتاب الأول •

* * *

هناك من يرى أن الفن العربى يقوم على فلسفة وحدة الوجود ، وهناك من يراه فنا تزيينيا يخلو من المعنى ، أو فنا جماعيا يخلو من التفرد • وكلا الأمرين ينظر بعين واحدة ، أما النظرة الوسطية فتكشف أن الفن العربى يوازن بين الأمرين ، فهو ليس انكفاء على الذات فى سعادة سرمدية وبهجة تامة ، وهو ليس تزيينا خارجيا ورصفا لبعض الوحدات الفارغة •

وقد استطاع هذا الكتاب أن يكتشف ملامح الوسطية وقد ألقت بظلالها كاملة على الفن العربى ، وأن يحدد من خلال هذه الملامح تركيبة الذوق العربى ، وأن ينطلق من هذه التركيبة لامتحان مختلف الفنون ، وتمييز الأصيل عن الوافد العارض •

وقد عكس الخط العربى فلسفة الوسطية وجذورها التاريخية • وكان تيارا بارزا يمثل مدرسة لها جمهورها ونقادها وأفكارها ، وكان القدماء يقرءونه ولا يقفون عند مجرد الحروف ، بل يلمحون وراءها

عالمـا جماليا ، يتميز بالبهجة والمتعـة والوضـوح • ويتميز بالحركة المتعالية فى الوقت نفسـه •

* * *

لكل اتجاه أدبه ، وقد تمثل أدب غلاة الصوفية فى تلك الشطحات ، ذات الأسرار التى لا تسمح بعملية التواصل بين الأديب والمتلقى • وتمثل أدب الفلاسفة فى ذلك الاتجاه العقلانى الذى يعتمد على النوع والجنس والهلية والأينية • أما الوسطية فقد تمثل أدبها فى تلك الأدعية المأثورة ، التى تعكس الموقف الوسطى من المسائل المطروحة ، والاستشراف نحو المطلق ، والخشية المغلفة بالسكينة والرضا بالقضاء والقدر •

وقد أمكن تحديد السمات الأصلية للأدب العربى ، فاذا بها تعبير عن موقف الانسـان العربى وفلسـفته ، أو بتعبير أدق « حكمته » ، وارضاء للذوق العربى الذى « يبدأ من الحواس ويجتهد فى امتاعهـا وفى الوقت نفسه يتطلع للمطلق ويحتفظ بمسافة بينهما تدفعه الى موقف الخشية » كما قلت •

* * *

أما الفصل الأخير فكان كتعليق على مناهج المستشرقين ، أو بعضهم ممن يصدرون عن قوالب خارجية جاهزة ، وتطبق على الحضارة العربية • فتكون النتيجة سوء فهم ، يضاف اليه سوء النية عند البعض الآخر ، فيعمل الأمران على افساد الحضارة والشخصية العربية معا ، وهـذا الفصل دعوة فى الآن نفسه الى تبنى منهج أصيل ، يعتمد على مصادر منتزعة من مسيرة الحضارة العربية الاسلامية الشرقية ، ويصل نتيجة لذلك الى اكتشاف العامل الرئيسى فى تلك الحضارة ، والذى يكمن وراء الحركات والتغييرات والطفرات •

ان هذا المنهج يحتاج الى معايشة للحضارة العربيـة لا تتوافر

هى رمـز للقوة الخارجية التى لا يستمدها المرء من ذاته ، والسندباد رمز المعرفـة •

وارتقى بهـذه الأحداث الى التيارات العالمية المعاصرة ، فحيرة شهريار والقدرية التى تفرض نفسها على صنعان وجمعه ، وغموض شخصية المعلم سحلول والالتقاء بالموت فى كل مكان — كل ذلك يضعنا فى الحس المعاصر بالعبث والاحباط ، ولكن بلغة عربية وأعلام مستمدة من الليالى ، ان عضـة الكلب التى تبدو فى الصباح على ذراع صنعان وتقلب حياته ، تذكرنا بنوبات روكانتان (١) ، واندفاعه نحو القتل مرغما يذكرنا بميرسول (٢) • وعفريت طاقت الاخفاء يذكرنا بمفيستوفوليس (٣) • وهكذا وبطريقة عملية حل نجيب محفوظ معضلة الأصـالة والمعاصرة ، وأصبحنا نقرا بزهومآسى عالمية ولكن فى طبعة عربية بدلا من التعريب الذى تلجا اليه معظم الروايات •

* * *

ان ليالى نجيب محفوظ تقترب من الشكل الشعبى ، فهى فيما تبدو تتركب من مقدمة ، وحكايات ، وخاتمة •

أما المقدمة فهى كعادة السير الشعبية توحى بأن الموضوع الرئيسى هو الصراع بين الخير والشر ، وتبدو شهر زاد فى أول الرواية تعيسة ، حقا قد عفا عنها السلطان ولكن رائحه الدم لا تزال تفوح منه ، والمملكة مليئة بالمنافقين ، والصراع طويل ، وعليها بمقام الصبر كما علمها الشيخ ، يقول لها أبوها « لله حكمته » فتجيبه « وللشيطان أو لياؤه » •

---

(١) بطل رواية « الغثيان » لسارتر .
(٢) بطل رواية « الغريب » لكامى .
(٣) هو الشيطان الذى كان يوسوس للدكتور « فاوست » فى رواية « جيته » .

المواقف التى تستوحى هـذا الطريق ، وتساهم فى بعث نظرة جديدة تلقى بظلالها على مختلف النشاط البشرى • ولكن الأهم أنها تستدعى « الرجل المنتظر » بعبارات حماسية ، وعاطفة صادقة ، وخوف على المصير «فيأيها الرجل الذى يرقـد بين سـطور الكتب ، أما آن لك أن تمتثل بيننا لتبشر برسالتك الجديدة ، وتعلن أنك امتداد لتلك السلسلة التى تجرى فى عروق آبائك وأجـدادك • لن نمل من استدعائك حتى تأتى ان شاء الله » •